

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه
"في القدس"The Image of Commitment in the Poetry of Tamim Al-Barghouti - A Reading in
Examples of His Book "In Jerusalem"د. الدراجي شطي¹Derradji chetti¹¹ جامعة غرداية (الجزائر)

البريد الإلكتروني: chetti.derradji@univ-ghardaia.dz

تاريخ النشر: 2025/01/14	تاريخ القبول: 2025/01/08	تاريخ الإرسال: 2025/01/03
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

بعد ذلك الترف الفكري الذي شاع في أدبنا العربي القديم وانحصار أغلب النتاج الأدبي - الشعري خاصة - في دائرة التكسب والولاء، ظهر في العصر الحديث تيار فكري آمن بضرورة تسخير النتاج الأدبي في خدمة المجتمع والأمة متأثراً في ذلك بما نادى به المذاهب الأدبية التي راجت في أوروبا في العصر الحديث كالرومانسية والواقعية، ليتوجه أدباؤنا وشعراؤنا نحو قضايا الأمة الوطنية والقومية ذات البعد الإنساني، قصد الإسهام في بناء الوعي الوطني والقومي، ذلك أن الوطن والعشيرة هما الروح والانتماء والهوية والتاريخ، وقد اصطلح على هذه الوجهة مصطلح الالتزام، ولعل من أهم الأعمال الشعرية المعاصرة التي تجلت فيها صورة الالتزام، أعمال الشاعر الفلسطيني "تميم البرغوثي"، الذي شكل ظاهرة شعرية معاصرة جذابة ما تزال تغري الباحث بمفاتها، حيث تسعى هذه الورقة البحثية إلى استجلاء صورة الالتزام في ديوانه "في القدس" مركزة على البعد الوطني والقومي والإنساني في شعره، إذ تشكل هذه الأبعاد ظاهرة براقية في ديوانه لا تخفى على متأمل.

الكلمات المفتاحية : صورة؛ الالتزام؛ شعر؛ البرغوثي؛ في القدس.

Abstract:

After that intellectual luxury that was common in our ancient Arabic literature and the confinement of most of the literary production - especially poetry - in the circle of earning and loyalty, an intellectual current appeared in the modern era that believed in the need to harness literary production in the service of society and the nation, influenced by what advocated by the literary schools that were popular in Europe. In the modern era, such as romanticism and realism, our writers and poets turn towards the national and national issues of the nation with a human dimension, in order to contribute to building national and national awareness, because the homeland and the clan are the spirit, belonging, identity and history, and the term commitment has been used in this direction, and perhaps one of the most important contemporary poetic works. In which the image of commitment was manifested, the works of the Palestinian poet Tamim Al-Barghouti, who formed an attractive contemporary poetic phenomenon that still seduces the researcher with its charms. As these dimensions form a glamorous phenomenon in his collection, which is not hidden from the contemplator.

Keywords: image, commitement, poetry, Barghouti, In Jerusalem.

1. مقدمة:

لقد حظيت القضية الفلسطينية باهتمام كبير من طرف الشعراء العرب بعامة وأبنائها بخاصة، حيث حركت هذه القضية وجدان شعراء العربية، كما حركت وجدان أبنائها، ولكن تبقى أقلام أبنائها رموزا فريدة في تاريخ الشعرية العربية، حيث رأينا فلسطين في شعر "درويش" محبوبة ورأيناها أما حنونا ورأيناها روحا ودما ووطنا، وكذلك نجدتها بكل تفاصيلها بواقعها بآلامها وجراحها بدماء أبنائها صورة حية في شعر "تميم البرغوثي" وعلى وجه الخصوص ديوانه "في القدس" المعول عليه في هذه الورقة البحثية، حيث عكس الشاعر في هذا الديوان صورة الشاعر الملتزم الذي جعل قضية وطنه وشعبه وأمتة مدار شعريته، لتتجلى صورة الالتزام في ديوانه في صورة الوطن والشعب والأمة، جامعا بذلك بين الاتصال بمن سبقه من الشعراء العرب ومواكبة الراهن السياسي والاجتماعي لوطنه فلسطين، وقد كان ديوان "في القدس" صورة نموذجية تبرز حس الشاعر الوطني والقومي والإنساني، وهو الذي سوف نعمل على تحليله من خلال هذا البحث، انطلاقا من التساؤلات الآتية:

كيف تجلت صورة الالتزام في الشعر العربي المعاصر عامة، وشعر البرغوثي خاصة؟ وما مدى حضور البعد القومي والوطني في شعر البرغوثي؟ وهل كان للجانب الإنساني حظ في شعره؟

وللإجابة على هذه التساؤلات تم تقسيم هذه الورقة البحثية إلى ثلاثة مباحث، وهي: 1. الشعر العربي المعاصر وقضايا الالتزام، 2. البعد الوطني والقومي في شعر البرغوثي، 3. الحس الإنساني في شعر البرغوثي.

2. الشعر العربي المعاصر وقضايا الالتزام:

لقد طبع الشعر العربي المعاصر بملامح ميزته عمّا عهده الذوق العربي من صور الجمال الشعري، فبعيدا عن المفاحرات والمدائح التي كانت سمة طاغية على شعرنا العربي من لدن العصر الجاهلي، أسس الشاعر العربي المعاصر ذوقا جماليا جديدا كان منبعه مآسي المجتمع وآماله وطموحاته، هذا المذهب الشعري الذي أشعلت فتيله الواقع الاجتماعي والسياسي للعالم العربي في العصر الحديث، وكل ذلك تحت قبة الالتزام، فصرنا نقول شعر ملتزم وشاعر ملتزم، وقبل التعرض لقضايا الالتزام في الشعر العربي المعاصر حري بنا أن نشير إلى مفهوم الالتزام في الأدب، لما يحتله هذا المصطلح من مكانة في الموضوع.

أ- مفهوم الالتزام:

الالتزام في اللغة من لزم قال ابن منظور في لسان العرب: «لزم الشيء يلزمه لزما ولزوما ولازمه ملازمة ولزاما والتزمه وألزمه إياه فالتزمه ورجل لزمة يلزم الشيء فلا يفارقه... والالتزام الاعتناق.»¹ وقال الفيروز آبادي: «الملازم: المعانق. والتزمه: اعتنقه»² من خلال هذين المفهومين يمكننا القول: إن المعنى اللغوي يوحي بتعهد الشيء والإيمان به وعدم مفارقتها.

أما اصطلاحا، فقد جاء في معجم "المصطلحات الأدبية المعاصرة" لسعيد علوش: أن «الالتزام قرار كاتب بالالتزام كتابته التاريخ،/ وضعية/ وعي ما»³ لا يختلف هذا المفهوم كثيرا عن المفهوم اللغوي إذ يشير إلى قضية الثبات على اتجاه أو فكر ما، ولكن هذا قد لا يضعنا أمام المفهوم الصريح للالتزام في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة والمعاصرة ويبقى السؤال مطروحا كيف يكون الشاعر أو الأديب ملتزما؟، وفي هذا الصدد يقول بدوي طبانة: «يعني أصحاب الدعوة إلى "الالتزام" أن يتقيد الأدباء وأرباب الفنون في أعمالهم الفنية بمبادئ خاصة، وأفكار معينة، يلتزمون بالتعبير عنه، والدعوة إليها، ويقربونها إلى عقول جماهير الناس، ويجيبونها إلى قلوبهم.

والأديب بهذا المعنى صاحب رسالة في التنبيه، والشرح والتوجيه...أو هو في الأقل مشارك لأصحاب تلك المبادئ والدعوات الإصلاحية في نشر دعواتهم والتمكين لها في القلوب والعقول»⁴ هذا الكلام فيه إشارة أكثر دقة لوظيفة الأديب الملتزم أو صفة الالتزام، وهو ما نجد أكثر جلاء وصراحة فيما أورده الدكتور محمد غنيمي هلال حيث يقول: «يراد بالالتزام الشاعر وجوب مشاركته بالفكر والشعور والفن في قضايا الوطنية والإنسانية، وفيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال»⁵ نفهم من كلام غنيمي هلال إن قياس مدى التزام الأديب أو الشاعر إنما يكون بمدى تعهده لقضايا وطنه وشعبه ومشاركته آماله وآلامه، حيث يضيف قائلا - عن واجب الشاعر تجاه وطنه ومجتمعه - :«فليس له مثلا أن يستغرق في التأمل في الجمال الخالد والخير الخالص، على حين يعاني وطنه ذل الاحتلال، أو عناء الطغيان. وليس له أن يسترسل في خيالاته ومشاعره الفردية، على حين وطنه من حوله أو طبقته الاجتماعية في وطنه، يجاهد في سبيل آمال مشتركة»⁶.

ويرى جان بول سارتر أن الكتابة إنما هي كشف وعمل هدفه التغيير⁷، وهذا ربما ما أشار إليه غنيمي هلال حين حديثه عن المسؤولية المنوطة بالشاعر الملتزم، ذلك أن «الأدب الملتزم يقف على مرتكزات ومنهجية واعية، الغاية منها هي حقيقة الرؤية الخاصة ونظرتها إلى الإنسان، وتقويمه نحو الكمال، ومداعبة الأحاسيس الصادقة بالكلمة المؤثرة، والأدب الجدير باسمه هو ما كان مرآة لعصره وترجمانا لظروفه، الأدب المتواصل مع مجتمعه، فليس الأدب بناء لغويا وحلي لفظية أو زخارف كلامية، وصورا فنية جمالية»⁸ وهذا ما نادى به المذهب الواقعي في الأدب، حيث إن الواقعية «تقوم على ملاحظة الواقع وتسجيله وتصويره بدقة متناهية، وهي ترفض التحليق المطلق في تهاويم الخيال، والبعد عن عالم البشر بما في من مشاكل قضايا، لأن روح العصر ترفض ذلك الترف والتعالي والبعد عن حقيقة معاناة الناس»⁹ وعليه «فالالتزام ليس استجداء التصفيق، والاهتمام بالناس لا يعني كتابة قصائد التعزية. للشعر وظيفة واحدة هي الدفاع عن إنسانية الإنسان في هذا العالم- كما يقول مايكو فسكب...»¹⁰.

من هذا المفهوم تبلورت النظرة الجديدة لشعرنا العربي المعاصر، فتوجه نحو قضايا مجتمعه السياسية والاجتماعية مشاركا بذلك شعبه في كل تفاصيل الحياة الإنسانية التي كان على رأسها القضايا الوطنية والقومية.

ب- مظاهر الالتزام في الشعر العربي المعاصر:

بناء على المفاهيم السابقة للالتزام سنحاول نقل بعض مظاهر الالتزام في شعرنا العربي المعاصر، من خلال نصوص نعدّها نماذج عن مشاركة الشاعر المعاصر لمجتمعه وأمته وآمالها، من منطلق الالتزام.

لم ينشئ الشاعر العربي المعاصر عن الذود عن حمى الوطن والعروبة والإنسانية، بل جعل منها حجر الأساس والأرض الخصبة التي بنى عليها شعره، وربما كان خير مثال عن ذلك النزوع الإنساني والاجتماعي الشاعر العراقي "معروف الرصافي" حيث يقول مشيراً إلى وظيفة الشعر وماهيته قائلاً:

وما حادثات الدهر إلا قصائد.... يفوه بها للسامعين فم الدهر

وما المرء إلا بيت شعر عروضة.... مصائب لكن ضربه حفرة القبر

تنظّمنا الأيام شعراً وإنما..... تردّ المنايا ما نَظْمَن إلى النثر¹¹

وقد اهتم الرصافي بالحياة الاجتماعية للمجتمع الحديث وأهم قضاياها وتفصيلها جاعلاً منها موضوعاً أساساً ومنطلقاً رسمياً لقصيدته، وهنا سنحاول نقل بعض نصوصه الشعرية التي تطفح بالنزوع الإنساني والروح الاجتماعي.

يقول الرصافي في قصيدته "أم اليتيم" :

رمت مسمعي ليلاً بأنّة مؤلم..... فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم

وباتت توالي في الظلام أنينها.... وبثُّ لها مرمًى بنهشة أرقم

فيهفو بقلبي صوتها مثلما هفت.... بقلب فقير القوم رنة درهم

إذا بعثت لي أنّة عن توجّع.... بعثت إليها أنّة عن ترحم

تقطع في الليل الأنين كأنها.... تقطّع أحشائي بسيفٍ مثلم¹²

نجد هذه الأبيات للرصافي التي من عنوانها إلى ممتنها تطفح بالمشاعر الإنسانية والاهتمام بالآلام الآخرين، مبرزة ذلك البعد الاجتماعي والإنساني للقصيدة، حيث استعان الرصافي بكل ما أوتي من بيان - كالتشبيه البارز في القصيدة - وجزالة في اللفظ لينقل صورة المرأة في موقف شاعري للقارئ.

وقد «حاول الرصافي في شعره أن يشارك آلام مجتمعه...أخذ الشعر من قصور الملوك والحكام إلى عالم الشعب، وتاركا التعبير لحسه ولمشاعره ولذوقه وفكره فتدفق أدبه من الجمود وخرج للحياة يتلمس منها موضوعاته

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه "في القدس"

الدراجي شطي- جامعة غرداية / الجزائر

الاجتماعية.¹³ فكتب عن الفقر والمرض والظلم والحرمان والعلم والمعرفة وحرية الفكر وغيرها من المواضيع الاجتماعية.

ويتقاسم مع الرصافي هذا التوجه كثير من الشعراء العرب المعاصرين الذين جعلوا اهتمامهم الأول قضايا المجتمع إذ لم يتركوا قضية تخص المجتمع العربي المعاصر إلى وطرقوها. معبرين عن حضورهم وتفاعلهم مع مجتمعهم ووطنهم وأمتهم.

وإذا كان هذا من الجانب الاجتماعي فقد وقف كثير من الشعراء المعاصرين نتاجهم العشري على قضايا وطنهم وأمتهم السياسية من منطلق الوطني والقومي، والتي كان في مقدمتها الاستعمارية (الكولونيالية) مواكبة للواقع السياسي الذي عاشه المجتمع العربي المعاصر، ولعل أهم قضيتين عرفهما العالم عامة والوطن العربي خاصة، هما القضية الجزائرية والقضية الفلسطينية.

يقول محمد صالح الجابري في كتابه "الأدب الجزائري المعاصر": «إن حالة الجزائر وما كانت عليه من بؤس وحاجة إلى منافع يدفع عنها الضر، ويسعى إلى خلاصها بكل السبل كانت لا تنعكس على نفوس الشعراء وفي قصائدهم فحسب، بل كانت تنخر وجدانهم وتؤجج فيهم نار الحمية في أتون اليأس والكمد الذي ينتابهم كلما شعروا بأن كيان وطنهم مهدد بالضياع.¹⁴ ويعلق الدكتور "أبو القاسم سعد الله" عن شعر الثورة الجزائرية مبرزا سماته ومميزاته قائلا: «وأما شعر هذه الفترة فتميز بالروح الوطنية المشتعلة سواء في تناوله لمواضيع ثورية مباشرة أو مستوحاة من الواقع العربي. كما يتميز بالحماس الطائر والعاطفة المجنحة.¹⁵ ومنه كان تعلق أغلب شعراء الجزائر بقضية وطنهم جاعلين من الكلمة سلاحا ثانيا في وجه المستعمر، ونذكر على سبيل المثال شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا الذي تغنى بالجزائر وثورتها وشعبها في جل المحافل وكل قصائده الشعرية، ونسوق نماذج من شعره الوطني الثوري الذي تجلى فيه مفهوم الالتزام. يقول مفدي زكريا في قصيدته "تكلم الرشاش جل جلاله":

أم أرض ربك، زلزلت زلزالها..... كما طغى في أرضه المستعمر

غضب الجزائر ذاك..؟ أم أحرارها..... ذكروا الجراح فأقسموا أن يثأروا

أرض الجزائر، والسماء، تحالفا..... فاخط حلفهما النجيع الأحمر

والأطلس الجبار بت قراره....فأنذك منه الأطلس المتجبر

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه "في القدس"

الدراجي شطي- جامعة غرداية / الجزائر

والشعب أسرع للشهادة عندما.... ناداه (عقبة) للفداء (وحيدر)!

وتكلم الرشاش جل جلاله!!..... فاهتزت الدنيا وضج النير

وتنزلت آياته لهابة..... لواحة أصغى لها المستهتر¹⁶

نلمس في هذه الأبيات لمفدي تلك الروح الوطنية العالية والحماس المفرط الذي يطغى على كلمات القصيدة معبرا عن إرادة شعبه وعظمته وإصراره على الحرية.

قم وخذ يوم البيان بيانا.... حي باسم الجزائر: المهرجانا

وارو عن ثورة الجزائر، فيها.... لبني العم، حبنا والحنانا

وحركتكم نبل العواطف للبذل،.... ففاضت أكفكم إحسانا

ودعاكم داعي العروبة، في الجلى.... وقمتم، تخففون بلانا

كبد تلك، في العروبة حرى.... أكسبتها، هذي الجراحات شانا¹⁷

مزج مفدي زكريا في هذه الأبيات بين الوطني والقومي، حيث ربط الثورة الجزائرية بأصولها العربية مبينا وحدة الدم ووحدة الإحساس بين أبناء العروبة، مهما تباعدت المسافات وحالت بينها الحدود القُطرية، وقد أوتي من البيان ما جعل القضية جرسا يجلجل في قلب كل جزائري وعربي. ويعزز ذلك قول محمد صالح الجابري: «وعلى مفهوم الارتباط بالعروبة كقوة معنوية لدعم الكفاح الجزائري يتضح بصورة أحلى وأكثر تحديدا في شعر مفدي زكريا خلال مرحلة الخمسينات، وخاصة بعد اندلاع الثورة الجزائرية، وتنادي الأقطار العربية إلى مناصرة هذه الثورة ودعمها اعتبارا للوشائج القومية»¹⁸ ويقول مفدي في قصيدة أخرى:

يا أمة العرب الكرام كرامة.... لك في الجزائر حرمة وذمام

في كل أرض للعروبة عندنا... رحم تشابك عندها الأرحام¹⁹

وكما اهتم الشاعر الجزائري بقضية وطنه اهتم أيضا بجل القضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية، وكما حركت الثورة الجزائرية وجدان وأقلام أبنائها حركت أيضا وجدان وأقلام الشعراء العرب في شتى الأقطار وطالما كانت ملهمة لهم في قصائدهم، فكتب عنها درويش ونزار والبياتي والسياب وسليمان العيسى وكثير من الشعراء العرب المعاصرين.

بعد هذه الإشارة الوجيزة لحضور الثورة الجزائرية في النتاج الشعري الجزائري على وجه الخصوص والعربي على وجه العموم، حري بنا أن نعرض على القضية الفلسطينية وكيف صارت ملهمة أبنائها كما كانت ملهمة للعرب عامة، فقد كان الشعر الفلسطيني «تنبعث عنه روح الوطنية جازمة قوية... حتى كان الأدب القومي الملتهب يطغى على الأدب العاطفي الرقيق إذ ألح الشاعر في هذا المجال على قضيته إلحاحاً جعله يتخذ من شعره وسيلة كفاحية مباشرة»²⁰ ولعل أشهر شعراء فلسطين شاعر القضية الفلسطينية محود درويش، حيث «استمدت جل أعمال درويش مرجعيتها من واقع فلسطين وما يعانیه شعبها جراء الاحتلال الصهيوني، لذلك كان الشاعر ناقماً على تلك الأوضاع، معبراً عنها بشكل حدائثي تبرز معه رؤياه بشكل جلي فكان ملتزماً بقضايا وطنه.»²¹ ومن هنا نسوق بعض النماذج من شعر درويش الذي كان صورة عن الواقع الفلسطيني.

يقول درويش في قصيدته حالة حصار:

هنا،

عند مُنَحَدَرَاتِ التلال،

أمام الغروب وفُؤْهَةِ الوقت،

قُرْبَ بساتينٍ مقطوعةِ الظل،

نفعلُ ما يفعلُ السجناء،

وما يفعل العاطلون عن العمل

نُرَبِّي الأمل.

بلادٌ علي أهبةِ الفجر. صرنا أقلَّ ذكاءً،

لأنَّا نَحْمِلُ في ساعة النصر

لا ليلٍ في ليلنا المتألي بالمدفعية.

أعداؤنا يسهرون وأعداؤنا يُشْعِلون لنا النورَ

في حلقة الأقيية.²²

نجد درويش في هذه الكلمات يصور الواقع الفلسطيني في ظل الحصار الظالم الذي فرضه العدو الصهيوني، في حالة من الهلع والخوف والوجل، على أمل الخلاص والحرية، في كلمات تجيش بالعواطف الإنسانية والروح

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه "في القدس"

الدراجي شطي- جامعة غرداية / الجزائر

الوطنية، فحين يقول لا ليل في ليلنا المتأليء بالمدفعية ندرك مدى هول الموقف والمعاناة التي يعيشها الشعب الفلسطيني.

ثم يقول في نفس القصيدة - مشيرا إلى انعدام الأنسانية في هذا العدو الغاصب - :

أيُّها الواقفون علي العَتَبات ادخُلوا،

واشربوا معنا القهوة العربيَّة

قد تشعرون بأنكم بَشَرٌ مثلنا

أيُّها الواقفون علي عتبات البيوت

أخرجوا من صباحاتنا،

نطمئنُ إلي أننا

بَشَرٌ مثلكم!

نَجِدُ الوقتَ للتسليَّة:

نلعبُ النردَ، أو نَتَصَفَّح أخبارنا

في جرائدِ أمسِ الجريح،²³

في دعوة إلى السلم يبرز درويش أن هذا الشعب طموحه الوحيد هو العيش في سلام، هو الإحساس بأنه

بشر كباقي البشر يلهو ويتسلى ويقرأ الجريدة، وهي صورة الحياة البسيطة التي يطمح إليها هذا الشعب المظلوم.

ونرى درويش يصور ظلم الصهاينة وبطشهم في قصيدته "عن إنسان" يقول:

وضعوا على فمه السلاسلَ

رابطوا يديه بصخرة الموتى

وقالوا : أنت قاتل!

أخذوا طعامه ، والملابس ، والبيارق

ورموه في زنزانة الموتى،

وقالوا : أنت سارق!

طردوه من كل المرافق

أخذوا حبيبته الصغيرة²⁴

ثم قالوا : أنت لاجئ!

في هذه القصيدة درويش يصور قمة الظلم وبشاعة الطغيان، في نموذج عن الأساليب الصهيونية في بث الرعب والخنوع في قلب المواطن الفلسطيني، لكن رغم ذلك يبقى الأمل قائما في زوال هذا الظلم والعوان مبرزا صلاة الفلسطيني وعدم رضوخه لمخططات الصهيونية.

هذا نموذج عن القضية الفلسطينية في أشعار أبنائها لمسناه من خلال درويش الذي يعد شاعر القضية الفلسطينية ولسان حالها وممثلها في شتى المحافل الدولية.

3. البعد الوطني والقومي في شعر البرغوثي:

لقد آمن تميم البرغوثي كغيره من أبناء فلسطين بقضية وطنه وجل القضايا العربية المعاصرة، فجعل من فلسطين رمزا لشعريته مبرزا وفاء للوطن و ارتباط الوطن بالأمة، والذي يصطلح عليه البعد الوطني والقومي، وكما سبقت الإشارة إلى أن صورة الالتزام تتمثل في تعهد الشاعر لقضايا وطنه وأمته، الأمر الذي نلمسه جليا صارخا في شعر تميم، وستكون محطتنا الأولى قصيدته الشهيرة "في القدس" حيث يقول:

مررنا على دار الحبيب فردنا.... عني الدار قانون الأعادي وسورها

فقلت لنفسي ربما هي نعمة.... فماذا ترى في القدس حين تزورها

ترى كل ما لا تستطيع احتماله.... إذا ما بدت من جانب الدرب دورها

وما كل نفس حين تلقى حبيبها تسر.... ولا كل الغياب يضرها

فإن سرها قبل الفراق لقاءه.... فليس بمأمون عليها سرورها

متى تبصر القدس العتيقة مرة.... فسوف تراها العين حيث تديرها²⁵

يفتح الشاعر هذه القصيدة بالتعبير عن حبه لوطنه، وذلك الارتباط الروحي الذي يعلقه بهذا الوطن، ثم يلتفت ليصور حالة هذا الوطن، من ظلم واغتصاب للأرض، قائلا: "ترى كل ما لا تستطيع احتماله"، وكيف تعلق تلك الصورة المؤلمة النازفة في العين والذهن والقلب. ثم ينتقل بعد ذلك ليصور الوطن من الداخل فيقول:

في القدس شرطي من الأحباش يغلق شوارعاً في السوق،

رشاش على مستوطن لم يبلغ العشرين، فبقة تحيي حائط المبكى

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه "في القدس"

الدراجي شطي- جامعة غرداية / الجزائر

وسياح من الإفرنج شُقِرَ لا يَرَوْنَ القدسَ إطلاقاً
تَراهُمُ يأخذونَ لبعضهم صُوراً
مَعَ امرأةٍ تبيعُ الفِجْلَ في الساحاتِ طُولَ اليَوْمِ
وَتَلَفَّتِ التاريخُ لي مُتَبَسِّماً
أَظُنْتُ حقاً أَنَّ عَيْنَكَ سوفَ تخطئهم، وتبصرُ غيرهم
ها هُم أَمَامَكَ، مَتْنُ نصِّ أَنْتَ حاشيةٌ عليه وَهَامِشٌ
...

في القدسِ كلُّ فتى سواك
وهي الغزالةُ في المدى، حَكَمَ الزمانُ بَيْنَها
ما زِلْتَ تَرُكُضُ خلفها مُذْ وَدَّعْتَكَ بِعَيْنِها
فَارْفُقْ بِنَفْسِكَ ساعةً إِنِّي أراكَ وَهَنْتَ
في القدسِ من في القدسِ إِلا أَنْتَ²⁶

تميم في هذه الكلمات يروي قصة الاغتصاب، وكيف صارت القدس غريبة وأبناؤها أغراب، في قالب سردي زاده التصوير البياني دقة وأثراً في النفس المتلقية، فنجدّه يشبه القدس بالغزالة، التي مازلنا نركض خلفها وهو الحلم بتحرير الأقصى الذي ركض بعيداً ولم نعد نلحق به، ويشبه أبناء القدس بحاشية النص والعدو بمتنه في إشارة بليغة إلى مدى استئثار العدو بأرض الأقصى ماحياً عنها كل صلة بأصلها العربي الأصيل، ثم يضرب تميم على الوتر العاطفي الذي يحرك القضية في القلب ويجعل الجرح ينزف كلما مرت بالبال فيقول:

في القدس لو صافحتَ شيخاً أو لمستَ بنايةً
لَوَجَدْتَ منقوشاً على كَفِّكَ نصَّ قصيدةٍ
يابْنَ الكرامِ أو ائْتَنَيْنِ
في القدس، رغمَ تنابحِ النِّكباتِ، ريحُ براءةٍ في الجوّ، ريحُ طُفُولَةٍ،
فَتَرى الحمامَ يَطِيرُ يُعلنُ دَوْلَةً في الرِّيحِ بَيْنَ رِصَاصَتَيْنِ
في القدس تنتظمُ القبورُ، كأنهنَّ سطورُ تاريخِ المدينةِ والكتابُ تراهُنَّ²⁷

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه "في القدس"

الدراجي شطي- جامعة غرداية / الجزائر

هذا المقطع هو رسالة حية من الشاعر عن الواقع الفلسطيني الأليم الذي بالرغم منه مازال هذا الشعب مؤمنا بحريته يقوده الأمل في النصر مهما سيطر العدو وفرض هيمنته على هذه الأرض، حيث نلمس مدى تضحية هذا الشعب في سبيل هذه الحرية المنشودة وسيبقى يضحي حتى يطهر بلده من دنس المستعمر. وهذا ما نسميه بالبعد الوطني للنص، ثم يعود الشاعر في آخر القصيدة ليربط الوطن بالبعد القومي العربي فيقول:

لا تبك عينك أيها المنسي من متن الكتاب

لا تبك عينك أيها العربي واعلم أنه

في القدس من في القدس لكن لا أرى في القدس إلا أنت²⁸

يربط الشاعر من خلال هذه الكلمات بيت المقدس ومن ورائه الأراضي الفلسطينية بالأصول العربي الأمر الذي يبرز البعد القومي لدى تميم البرغوثي.

كما نجد تميم البرغوثي يبرز ويجلي جرائم العدو الصهيوني في قصيدته "قفي ساعة" حيث يقول:

عزائي من الظلام إن مت قبلهم... غموم المنايا ما لها من تجامله

إذا أقصد الموت القتل فإنه... كذلك ما ينجو من الموت قاتله..

فنحن ذنوب الموت وهي كثيرة.... وهم حسنات الموت حين تسائله..

ترى الطفل من تحت الجدار منادياً.... أبي لا تخف والموت يهطل وابله..

ووالده رعباً يشير بكفه.... وتعجز عن رد الرصاص أنامله..

أرى ابن جمال لم يفده جماله.... ومنذ متي تحمي القتل شمائله..

على نشره الأخبار في كل ليلة.... نرى مؤتناً تغلو وتهوي معاولة..

أرى الموت لا يرضى سوانا فريسة... كأننا لعمري أهله وقبائله..²⁹

تعكس هذه الأبيات صورة الوطن البائسة التي يعيشها جراء انتشار الموت بأبشع صوره في أوساط أبناء الشعب الفلسطيني، يبرز فيها الشاعر روحه الوطنية العالية ومدى تأثره بواقع الوطن الأليم، مصوراً فضاء الموت الذي يسوقه العدو لهذا الشعب.

وفي نفس القصيدة يلتفت الشاعر إلى القضايا العربية المزمنة لقضية وطنه فيقول:

وقتل على شط العراق كأنهم.... نقوش بساط دقق الرسم غارله..

يُصَلِّي عَلَيْهِ ثُمَّ يُوطَأُ بَعْدَهَا.... وَيَحْرِفُ عَنْهُ عَيْنُهُ مُتَنَاوِلَةً..

إِذَا مَا أَضَعْنَا شَامَهَا وَعِرَاقَهَا.... فِتْلِكَ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَدَاخِلُهُ..³⁰

وهنا نرى الشاعر يجمع بين الوطني والقومي في نبرة عتاب صارخة رافضة للواقع العربي من جهة والفلسطيني من جهة أخرى، ليعكس الصورة المؤلمة للواقع العربي المعاصر، الذي رضي بالذل والهوان وسلم بفرضية هذا الواقع، ثم نجده في قصيدة أخرى ساخطا على صور المساندة العربية التي لا تغني ولا تسمن من جوع فيقول:

معين الدمع لن يبقى معينا.... فمن أي المصائب تدمعينا

زمان هون الأحرار منا.... فديت وحكم الأنذال فينا

ملأنا البر من قتلى كرام.... على غير الإهانة صابرنا

كأنهم أتوا سوق المنايا.... فصاروا ينظرون وينتقونا

لو أن ادھر يعرف حق قوم.... لقبيل منهم اليد والجينا

عرفنا الدهر في حاله حتى.... تعودناهما شدا ولينا

فما رد الرثاء لنا قتيلا.... و لا فك الرجاء لنا سجيئا³¹

تميم يستنكر في هذه الأبيات الرضى بالواقع وألفة الذل والهوان الذي أصبح شيء معتاد لدى العربي، ويبين أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فلسنا بحاجة لدموع وشعارات بل نحن بحاجة لفعل حقيقي ينبي عن رفض الشعب لهذا الظلم الواقع على الشعوب في الأراضي الفلسطينية وغيرها، كما يستدعي التاريخ كوسيلة للعتاب وشحذ الهمة حين يقول:

ملأنا البر من قتلى كرام.... على غير الإهانة صابرنا

ومنه نجد تميما كثيرا ما يمزج بين وطنيته وقوميته من خلال التصوير الشعري سواء من خلال التصوير البياني أو الترميز الشعري واستدعاء التاريخ.

4. الحس الإنساني في شعر البرغوثي:

لقد تميز شعر البرغوثي بذلك الحس الإنساني الصارخ في كثير من أشعاره الوطنية، حيث نراه وهو يتحدث عن شعبه ومعاناته وألمه يركز كثيرا على الإنسانية المنتهكة في أبناء فلسطين والإنسانية المنعدمة في ممارسات العدو

الصهيوني، «مضمون الأدب والفنون مضمون إنساني أصيل، فهو يعرض الحياة بشكل ملموس، مقدما نماذج قد تثير الإعجاب والاستنكار...الأدب أداة فاعلة في يد الأديب، تسعى إلى تغيير الواقع عن طريق النقد الإيجابي الفعال، الساعي إلى إِبْالة المشكلات الإنسانية، والسمو بالإنسان إلى إنسانيته».³²

نجد هذا الحس الإنساني جليا في قصيدة قفي ساعة فحين يقول الشاعر:
قفي ساعةً يفديك قَوْلِي وقائِلُهُ.... ولا تَخْذِلي مَنْ باتَ والدهرُ خاذِلُهُ..
إذا عجز الإنسانُ حتَّى عن البكى.... فقد بات محسودا على الموت نائِلُهُ..
فكن قاتِلَ الآمالِ أو كن قتيْلها... ..تساوى الردى يا صاحبي وبدائِلُهُ..³³

تميم في هذه الأبيات يصور الحالة المزرية للإنسان الفلسطيني الذي ألف الموت، ولم يعد يشعر بالحزن كانه فقد التمييز بين المشاعر، حيث نلاحظ الحس الإنساني الفياض صورة حية في النص، يتسلل من الذات الشاعرة إلى الذات المتلقية لتتحد الروح الإنسانية بين النص والشاعر والمتلقي، كما تصور الأبيات انعدام ذلك الحس الإنساني لدى العدو الغاصب الذي جعل من جثث الأطفال والعاجزين حديقة للتسلية في صورة وحشية قائمة تنبي عن فقدانه لكل حس إنساني.

وهو أيضا ما نلمسه في قوله من قصيدته "خط على القبر المؤقت":

جموع كل من فيها وحيد.... ووحشتها تزيد اذا تزيد
وكل لابس ثوب المنايا.... شهيدٌ في جنازته شهيد
غريب الناس من يحيا شريداً.... وفي الموتى له قبرٌ شريد³⁴

هذه الأبيات هي ملخص لحياة الشعب الفلسطيني الذي هو دائما على موعد مع الموت الذي لا يطيب عيشه بهدوء ولا يمر يومه دون دماء، يضعنا الشاعر من خلالها داخل الواقع الفلسطيني ليحرك بكلماتها إنسانية الإنسان التي انسلخ منها الصهاينة في قمعهم لإرادة الشعب الفلسطيني المستضعف، لتجمع هذه الأبيات بين الحس الوطني والإنساني في نص واحد.

ولا تكاد تخلو قصائد تميم من ذلك الحس الإنساني سواء من حيث تجريم العدو أو تصوير واقع الشعب، لذلك نجد تميم يحشد كل ما امتلك من ثقافة وبيان ولفظ لتصوير الواقع الفلسطيني الذي مازال جرحه داميا.

5. النتائج:

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه "في القدس"

الدراجي شطي- جامعة غرداية / الجزائر

بعد التأمل في شعر البرغوثي من خلال ديوانه "في القدس" والتنقل بين مراحل تاريخ الشعر العربي المعاصر وتقسي مظاهر الالتزام فيه، بالاستناد إلى مفاهيمه عند جملة من الأدباء والنقاد، والذي كان مستندنا في التنقيب عن صورة الالتزام في شعر البرغوثي توصلنا إلى ما يلي:

- لقد تجسدت صورة الالتزام في شعر تميم في ثلاث صور هي صورة الوطن وصورة العروبة والمجتمع في ظل العدوان الصهيوني.

- اعتمد تميم في جل قصائده على السرد في تصويره للواقع الفلسطيني.

- في كثير من الأبيات نجد تميم يستثمر ثقافته التاريخية في تصوير الواقع العربي المعاصر، جاعلا من الرمز الشعري وسيلة طيبة في ذلك.

- رأينا كيف لعب تميم على مستوى التشكيل الشعري من خلال المزاوجة بين العمودي والحر ليصنع لذاته تجربة شعرية متفردة عكست شعريته وقدرته الفنية.

- كثيرا ما لعب تميم في قصائده على الوتر العاطفي، تارة بالاسترجاع من خلال العودة بالزمن إلى أيام العز والتمكين وتارة من خلال التصوير الفني للحاضر الأليم محركا بذلك المشاعر الإنسانية والحمية في نفس الإنسان العربي.

الهوامش:

¹ ابن منظور: لسان العرب، ج12، دار إحياء التراث العربي، ص 272-273.

² مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ص1158.

³ سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: دار الكتاب اللبناني، ص195.

⁴ بدوي طبانة: قضايا النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، ص15.

⁵ محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار المعارف، ص553.

⁶ المرجع نفسه: ص ن.

⁷ ينظر: جان بول سارتر: تر: محمد غنيمي هلال: ما الأدب، دار نهضة مصر، ص23.

⁸ فؤاد عمر علي البابلي: الالتزام في شعر محمد التهامي دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية - غزة، 2004، غير منشورة، ص10.

⁹ رفعت زكي محمود عفيفي: المدارس الأدبية الأوروبية وأثرها في الأدب العربي، دار الطباعة المحمدية، ص51.

صورة الالتزام في شعر تميم البرغوثي- قراءة في نماذج من ديوانه "في القدس"

الدراجي شطي- جامعة غرداية / الجزائر

- ¹⁰ إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 160.
- ¹¹ معروف الرصافي: ديوان الرصافي، شرحه ووضحه: مصطفى السقا، دار الفكر العربي، ص 6.
- ¹² المرجع نفسه: ص
- ¹³ إسماعيل نادري: معروف الرصافي محلل اجتماعي للفقر والحرمان، مجلة التراث الأدبي، ع 8، 1969، ص 112-113.
- ¹⁴ محمد صالح الجابري: الأب الجزائري المعاصر، منشورات السهل، ص 42.
- ¹⁵ أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ص 46.
- ¹⁶ مفدي زكرياء: اللهب المقدس، موفم للنشر، ص 115-116.
- ¹⁷ اللهب المقدس: ص 151-152.
- ¹⁸ محمد صالح الجابري: المرجع السابق، ص 55.
- ¹⁹ اللهب المقدس: ص 47.
- ²⁰ خالد علي مصطفى: الشعر الفلسطيني الحديث، دار الحرية للطباعة، ص 25.
- ²¹ كلفالي سميحة: الواقع والرؤيا عند محمود درويش قراءة في جدانية محمود درويش، مجلة قراءات، ع 6، 2014، ص 245.
- ²² محمود درويش، حالة حصار، رياض الريس للكتب والنشر، ص 9-10.
- ²³ المصدر نفسه، ص 18-19.
- ²⁴ محمود درويش، أوراق الزيتون، الأهلية للنشر والتوزيع ص 5.
- ²⁵ تميم البرغوثي: في القدس، دار الشروق، ص 7.
- ²⁶ الديوان: ص 8.
- ²⁷ الديوان: ص 11.
- ²⁸ الديوان: ص 12.
- ²⁹ الديوان: ص 98.
- ³⁰ الديوان: ص 98.
- ³¹ الديوان: ص 129.
- ³² فراق أمال: تحليات النزعة الإنسانية عند شعراء الرابطة القلمية رشيد أيوب أنموذجا، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، 2012، غير منشورة، ص 39-40.
- ³³ الديوان: ص 97.
- ³⁴ الديوان: ص 67.